

السَّمة الموسوعيَّة التَّكامليَّة في مؤلَّفات العلماء المسلمين . مقدِّمة ابن خلدون أنموذجا .

أ. إسماعيل عريف

جامعة الشهيد حمَّه لخضر الوادي (الجزائر)



Résumé:

Centrer cette intervention sur les caractéristique de totalitarisme complémentaire qui a été caractérisée par les travaux de savants de l'Islam, ce sont ceux de collecte par l'auteur de divers types de science intégrée entre eux en termes de connaissances, ce qui est ce qui a été appelé Bmosusah création, la reine, qui vient de l'abondance de la science et de la connaissance, qui a été réalisée par les savants musulmans dans les temps anciens, et a mis de côté ces articles scientifiques pour voyager énorme une place de choix et d'une grande importance dans le domaine scientifique avec les plus grands chercheurs, il est l'introduction d'Ibn Halden, nous avons choisi comme modèle pour justifier un procès attribut encyclopédique érudits de la littérature de l'Islam, ce Hute cette soumis par les sciences et les pluies de connaissances diverses, ce qui confirme la démonstration de sincère Mosusatha et l'intégration des connaissances.

الملخص:

تتمحور هذه المداخلة حول تلك السَّمة الشَّموليَّة التَّكامليَّة التي امتازت بها مصنَّفات علماء الإسلام؛ إذ كان هؤلاء يجمعون في المؤلَّف الواحد أنواعا شتى من العلوم المتكاملة فيما بينها من الناحية المعرفيَّة، وهذا ما أصطلح عليه بالموسوعيَّة في التَّأليف؛ تلك الملكة التي تتأتَّى من غزارة العلوم و المعارف التي كان يضطلع بها العلماء المسلمون قديما، وقد خصَّصنا هذه الورقات لسفرٍ علميٍّ ضخيم ذو مكانة مرموقة و أهميَّة كبيرة في المجال العلميِّ لدى أعظم الباحثين؛ إنَّه مقدِّمة ابن خلدون؛ التي اخترناها كنموذج لتبرير دعوى السَّمة الموسوعيَّة في مؤلَّفات علماء الإسلام، لما حوته هذه المقدِّمة من علوم شتى و معارف غزيرة، ممَّا يؤكِّد ببرهان صادق عن موسوعيَّتها و تكاملها المعرفي.

الكلمات المفتاحيَّة: السَّمة الموسوعيَّة، التَّكامل المعرفي، علماء

الإسلام، العلوم و المعارف، مقدِّمة ابن خلدون.

تمهيد:

لقد أثر عن علماء المسلمين القدامى غزارة التأليف في شتى العلوم و المعارف العلمية المختلفة، و ذلك عائذ إلى نباهة مداركهم، و تفتق عقولهم، و سعة اطلاعهم، و اهتمامهم بالبحث الجاد في المسائل العلمية الدقيقة و الشائكة، و إدراكهم لحاجة الناس الماسة إلى مثل هذه المصنّفات التي تُزجج عن كواهلهم عناء الاستقصاء عما يُؤزّقهم من قضايا دينية و دنيوية، و تُريحهم من مشقة الأسفار و التنقّلات بحثا عن المصادر التي تبين لهم أحكام دينهم و شؤون معاشهم، و كلّ هذا إثمارة بالقرآن الكريم الذي حثّتهم آياته بالتبصّر و التفكير في خلق السماوات و الأرض، و الاشتغال بطلب العلم النافع الذي يفيدهم في الدنيا و الآخرة، و تأسيسا بنيهم عليه الصلاة و السلام الذي رغبهم في العلم، و حثّهم على طلبه مهما كانت الظروف و في كلّ الأحوال.

و قد اتّسمت تأليف هؤلاء العلماء بالموسوعية التكاملية و الشمولية، فكان الكثير منها لا يقتصر على بحث موضوع واحد، أو فرع علمي خاصّ، و إنّما يطرّق عدّة مواضيع، و يبحث كثير من القضايا المتنوعة و المختلفة، فيطّلع القارئ في الواحد منها على الشؤون السياسية، و الأحكام الدينية، و الظواهر الاجتماعية، و الأحداث التاريخية، و القضايا الفلسفية، و غير ذلك من المناحي الحياتية و العلمية الأخرى، ممّا يضيف عليها طابع الاحتواء لكافة صنوف العلم و مقاصده.

و تبرز هذه الصفة جلية في كتابات و مؤلفات بعض العلماء الذين آثروا هذا المنهج، أمثال: ابن تيمية، و الغزالي، و ابن حزم، و الشهرستاني، و غيرهم كابن خلدون الذي جعل من مقدّمته موسوعة علمية متكاملة فيما بينها و شاملة تضمّ بين دفتيها صنوفا شتى من العلوم و المعارف؛ و التي اخترناها كنموذج معبر عن السمة الموسوعية التكاملية في مؤلفات علماء المسلمين التي إمتازت بالتكامل المعرفي، و الضبط المنهجي، و النماء الحجمي، محاولين كشف ما حواه هذا الكتاب من كنوز معرفية معتبرة بين صفحاته في ضوء موضوع هذه الدراسة، و ذلك من خلال التطرّق لإشكالية مفادها: ما الداعي الذي جعل مقدّمة ابن خلدون تتّصف بصفة الموسوعية التكاملية في موضوعاتها؟ أو إلى أيّ حدّ تبرز هذه الصفة في هذا الكتاب؟ وسنجيب عن هذه الإشكالية من خلال التطرّق لمحورين اثنين؛ أحدهما نظري، و آخر تطبيقي:

— نضبط في أوّلها المصطلحات الواردة في عنوان هذه المداخلة، كإجراء منهجي للتعرف على موضوعها.

— و نحدّد في ثانيهما السّمة الموسوعيّة التّكامليّة في هذا السّفر العلميّ الضّخم، كتعليلٍ على هذه الصّفة التي امتازت بها مؤلّفات علماء المسلمين.

*** المحور النظري:** يقدّم هذا المحور تعريفا موجزاً للمصطلحات الواردة في هذه المداخل (السّمة الموسوعيّة التّكامليّة، ابن خلدون، مقدّمة ابن خلدون).

أولاً— مفهوم السّمة الموسوعيّة التّكامليّة:

إنّ المقصود بالسّمة الموسوعيّة التّكامليّة—هاهنا— تلك الصّفة الشّموليّة التّداخليّة التي تمتاز بها بعض المؤلّفات العلميّة المنجزة من قبل ثلّة من علماء المسلمين؛ و التي تُضفي على هذه الكتابات صبغة احتوائيّة تناسقيّة، جاعلة منها موسوعة علميّة معرفيّة تضمّ مختلف العلوم المكّملة لبعضها البعض، و شتّى أنواع المعارف المترابطة، وفق تقسيم منهجيّ خاصّ يميّزها عمّا سواها من المؤلّفات الأخرى التي تُخصّص للحديث عن فرع علميّ واحد دقيق و محدود.

و قد يُوظّف العالم الكاتب هذه الموسوعيّة التّكامليّة في مصنّف واحدٍ فيضمّنه ثغفا جمّة من سائر العلوم و المعارف المتداخلة كما فعل ابن خلدون في مقدّمته، أو يجعل ذلك مُوزّعا على عدّة مصنّفات؛ حيث يُفرد لكلّ موضوع أو لكلّ فرع من الفروع العلميّة مصنّفا خاصّا به، فتختلف المصنّفات و تتنوّع موضوعاتها لتكون في النّهاية موسوعة شاملة لكثير من العلوم ذات النّسق المعرفي المتكامل، كما نجد ذلك حاصلّا عند العديد من العلماء المسلمين القدامى؛ كالغزالي، و ابن حزم... .

و هذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على أن هؤلاء العلماء كانوا كذلك بكلّ ما تحمله هذه الكلمة من معاني؛ فبالإضافة إلى تبخّر أحدهم في علوم الدّين الثّقليّة و العقليّة؛ كالفقه، و التّفسير، و الحديث، و علم الكلام، تلقاه مُتخصّصا أو مُلمّا بالطّبّ، أو علم الفلك، أو التّاريخ، أو الجغرافيا، أو الرّياضيات، أو الفلسفة... أو غير ذلك من باقي العلوم الأخرى.

كما أنّ لجوء هؤلاء العلماء إلى هذه الصّناعة إنّما مردّه إلى اختلاف مشارب النّاس و تنوّع أذواقهم، فحرصا منهم على تلبية هذه الرّغبات الفطريّة في بني البشر، نوّعوا في كتاباتهم، و جعلوها موسوعيّة المعارف؛ ليلقى فيها كلّ باحثٍ ما يشفي غليله المعرفي، و يشبع نهمه العلميّ، و لئلا يسئم أيّ قارئ أو مُطلّع من قهر الموضوع الواحد، أو يبقى حبيسا في مسائله، و يرجع ذلك أيضا إلى إيمانهم العميق بتداخل العلوم و المعارف و تكاملها فيما بينها، و أنّ كلّ علم يجمع بباقي العلوم علاقة التّكامل المعرفي الذي من شأنه خدمة الإنسانيّة جمعاء.

لذلك كلّه لاقت هذه المؤلفات إقبالاً مكثفاً من قِبل الباحثين و القارئین، و رواجاً واسعاً بين الأوساط العلميّة و الشعبيّة على حدّ سواء؛ لأنّها اشتملت على شتّى المواضيع التي تممّهم و تحلّ مشاكلهم، و لأنّها تحمل في طيّاتها كنوزاً علميّة ثميّة، و معارف متكاملة لا تتوافر إلّا فيها.

ثانيًا_ ترجمة ابن خلدون:

هو عبد الرحمن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، وليّ الدّين الحضرمي الاشبيلي، من ولد وائل بن حجر، المولود سنة سبعمائة و اثنين و ثلاثين (732) هجرية الموافق لعام اثنين و ثلاثين و ثلاثمائة و ألف (1332) ميلادي، الفيلسوف المؤرّخ، العالم الاجتماعي البَحّاث، أصله من اشبيلية، و مولده و منشأه بتونس، رحل إلى فارس و غرناطة و تلمسان و الأندلس، و تولّى أعمالاً، و اعترضته دسائس و وشايات، و عاد إلى تونس، ثمّ توجه إلى مصر فأكرمه سلطانها الظّاهر بركوق، و وليّ فيها قضاء المالكيّة، و لم يتزوّج بزيّ القضاة محتفظاً بزيّ بلاده، و عُزل، و أُعيد، و توفّي فجأة في القاهرة سنة ثمانمائة و ثمان (808) للهجرة الموافق لعام ستّ و أربعمائة و ألف (1406) ميلادي، (الزركلي، خ. 2002م: 330).

كان فصيحاً، جميل الصّورة، عاقلاً، صادق اللّهيجة، عزوفاً عن الضّميم، طامحاً للمراتب العاليّة، و لما رحل إلى الأندلس اهتدّى له سلطانها، و أركب خاصته لتلقّيه، و أجلسه في مجلسه. اشتهر بكتابه "العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في تاريخ العرب و العجم و البربر"، طُبِع في سبعة مجلدات، أوّلها "المقدمة"؛ و هي تُعدّ من أصول علم الاجتماع، و ختم "العبر" بفصل عنوانه: "التّعريف بابن خلدون" ذكر فيه نسبه و سيرته و ما يتّصل به من أحداث زمنه، و من كتبه: "شرح البردة"، و كتاب في "الحساب"، و رسالة في "المنطق"، و "شفاء السّائل لتهديب المسائل"، و له شعر، و تناول كتّاب من العرب و غيرهم، سيرته و آراءه، في مؤلّفات خاصّة، منها: "حياة ابن خلدون" لمحمد الخضر بن الحسين، و "فلسفة ابن خلدون" لطله حسين" و "دراسات عن مقدّمة ابن خلدون" لساطع الحصري، و "ابن خلدون حياته و تراثه الفكري" لمحمد عبد الله عّنان، و "ابن خلدون" ليوحنا قمير، و مثله لعمر فروخ، (الزركلي، خ. 2002م: 330)، و كلّ هذا الاهتمام به من قبل هؤلاء الباحثين و غيرهم يدلّ على المكانة العظمي التي يحظى بها في التّراث العربي، كونه شخصيّة مرموقة ساهمت في تنشيط الحياة الفكرية و العلميّة بالنسبة للعرب و المسلمين، فقد كان رحمه الله واسع الاطلاع كثير البحث في الأنساب، و الأعراف، و العادات، و التّقاليد، و التّواريخ، و الظّواهر الاجتماعيّة، و غير ذلك من مناحي الحياة الإنسانيّة؛ فهو المؤرّخ، و عالم الاجتماع، و الفيلسوف الحكيم، و الرّحالة المخلص في أعماله و بحوثه؛ ممّا بوّأه هذه المرتبة السّامية، و هذا الشرف العالي، و جعل جموع النّاس يُقبلون عليه و على مصنّفاته إطلاعا دراسة

و تحقيقاً، لأنّ ما تركه هذا الرّجل هو بمثابة الكنز العلميّ الثّمين، خاصّة "المقدّمة" التي سنخصّها بالدراسة في المحور التطبيقي من هذه الدراسة.

ثالثاً_ التعريف بمقدّمة ابن خلدون:

تُطلق مقدّمة ابن خلدون على المجلّد الأوّل من المجلّدات السّبعة التي يتألّف منها كتاب "العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيّام العرب و العجم و البربر و مَن عاصرهم من ذوي السّلطان الأكبر"، و يشتمل هذا المجلّد على ما يلي:

1_ خطبة الكتاب أو ديباجته أو افتتاحيته، و قد عرض فيها المؤلّف لبحوث المؤرخين من قبله، و ذكر طوائفهم، و وجوه التّقص في بحوثهم، و أشار إلى الأسباب التي دعت له لتأليف الكتاب كلّ "كتاب العبر" و بيّن طريقته و أقسامه، و ختم ذلك كلّ بإهداء نسخة من الكتاب إلى أمير المؤمنين أبي فارس عبد العزيز بن أبي الحسن المريني سلطان المغرب الأقصى.

2_ مقدّمة في فضل علم التّاريخ، و تحقيق مذاهبه، و الإلماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط و الأوهام و ذكر شيء من أسبابها.

3_ "الكتاب الأوّل في طبيعة العمران في الخليقة و ما يعرض فيها من البدو و الحضرة و التّعلّب و الكسب و المعاش و الصّنائع و العلوم و نحوها و ما لذلك من العلل و الأسباب"، و هو القسم الرئيسي فيما نسميه الآن "مقدّمة ابن خلدون" و يشتمل على تمهيد و ستّة أبواب.

و قد طُبعت مقدّمة ابن خلدون لأوّل مرّة في منتصف القرن التاسع عشر طبعتين رئيسيتين، اعتمدت عليهما جميع الطّباعات التي ظهرت بعد ذلك:

أ_ طبعة مصر التي ظهرت سنة 1274هـ/1885م تحت إشراف الشّيخ نصر الهوريني، و قد نقلها عن النّسخة الفارسيّة مباشرة (أي النّسخة التي أهداها ابن خلدون لأبي فارس عبد العزيز سلطان المغرب الأقصى).

ب_ طبعة باريس و التي أشرف عليها المستشرق الفرنسي كاترمير quatremère، و قد ظهرت في ثلاثة مجلّدات سنة 1858م؛ أي في السّنة نفسها التي ظهرت فيها طبعة الهوريني بالقاهرة، و كان قد اعتمد في إخراجها على أربع نسخ خطيّة للمقدّمة.

و بعد ذلك ظهرت عدّة طباعات فرعيّة لم تعتمد على مخطوطات، منها:

1_ طبعة بولاق سنة 1284هـ/1868م.

2_ طبعة البستاني في بيروت، و التي نُشرت تحت إشراف الكاتب رشيد عطية و المعلم عبد الله البستاني.

3_ طبعة المكتبة التجارية بمصر.

4_ طبعة المطبعة الأدبية ببيروت سنة 1879م.

5_ طبعة مصطفى فهمي في مطبعة التّقدّم بمصر سنة 1329هـ.

6_ طبعة دار الكتاب اللبناني في بيروت سنة 1956م.

7_ طبعة لجنة البيان العربي سنة 1957م، بتحقيق الدكتور علي عبد الواحد وافي.

و قد أقبل كثير من الباحثين من العرب و المستشرقين على دراسة المقدّمة لأهميّتها؛ فعكفوا على تحقيقها، و استخراج ما حوته من معلومات مفيدة و هامة في مجال البحث العلمي، و نظرا للعمق الذي تحلّت به في تحليلها للظواهر الاجتماعيّة و الإنسانيّة، و طرقها للمواضيع العلميّة البحتة (الرّعي، أ. دت: 22 و ما بعدها).

*** المحور التطبيقي:** و فيه سنحاول بسّط العلوم التي احتوتها المقدّمة تدليلاً عن السّمة الموسوعيّة التّكامليّة.

إنّ مقدّمة ابن خلدون تُعدّ من الأعمال الموسوعية الشّاملة لكثير من الفروع العلميّة و المعرفيّة المتكاملة فيما بينها؛ نظرا للمسلك الذي انتهجه مؤلّفها في تأليفها، فقد ألّفها على طريقة العلماء القدامى الذين يُضمّنون المصنّف الواحد عدّة قضايا مختلفة، بغية التّوسعة على المطلّعين على أعمالهم الفكرية، أو ابتغاء إضفاء السّمة الموسوعيّة عليها، فجاءت هذه المقدّمة على غرار تلك الأعمال شاملة متنوّعة متراميّة الأطراف من النّاحيّة الموضوعيّة العلميّة، فكانت موسوعة معرفيّة متكاملة يحتاجها كلّ باحث مهما كان تخصّصه، فيستعين بها المؤرّخ، و الفيلسوف، و عالم الاجتماع، و عالم الاقتصاد...، إذ يجدون فيها ما يبحثون عنه من معلومات و معارف علميّة دقيقة، و لعلّ هذا هو السبب الرّئيس الذي جعلها تنتشر انتشارا واسعا في شتّى أصقاع العالم شرقا و غربا شمالا و جنوبا، و بين جميع الفئات البشريّة من باحثين و قارئين و عامّة.

قال ابن خلدون مفتخرا بهذا العمل الفريد "كتاب العبر" و خاصة "المقدمة": " أنشأت في التاريخ كتابا، رفعت به عن أحوال الناشئة من الأجيال حجابا، و فصلته في الأخبار و الاعتبار بابًا بابًا، و أبدت في أولية الدول و العمران عللا و أسبابًا... و سلكت في تربيته و تبويبه مسلكا غريبا، و اقترحتة من بين المناحي مذهبا عجيبا، و طريقة مبتدعة و أسلوبا... استوعب أخبار الخليقة استيعابا، و أعطى لحوادث الدول عللا و أسبابا، و أصبح للحكمة صوائغا و للتاريخ جرابًا " (ابن خلدون، ع. دت: 37_38).

و قال مبينا موسوعية هذا العمل و شموليته: " و لم أترك شيئا في أولية الأجيال و الدول، و تعاصر الأمم الأول، و أسباب التصرف و الحول، في القرون الخالية و الملل، و ما يعرض في العمران من دولة و ملة، و مدينة و حلة، و عزة و ذلة، و كثرة و قلة، و علم و صناعة، و كسب و إضاعة، و أحوال متقلبة مشاعة، و بدو و حضر، و واقع و مُنتظر، إلا و استوعبت جُمُله، و أوضحت براهينه و علله، فجاء هذا الكتاب فذاً بما ضمنت من العلوم الغريبة، و الحِكم المحجوبة القريبة " (ابن خلدون، ع. دت: 39).

فالتأظر في هذا المؤلف يلمس فيه منذ الوهلة الأولى هذه الصفة واضحة جلية؛ لأنها هي الطابع البارز الذي تميزت به مقدمة ابن خلدون؛ التي احتوت كثير من العلوم و الصناعات و العادات و التقاليد، و تميزت بذلك عن معظم المصنفات الأخرى التي لم تنح هذا النحو الكلاسيكي القديم القائم على فكرة التكامل المعرفي بين العلوم و المعارف الإسلامية و غيرها من العلوم و المعارف الأخرى.

و نظرا لتنوع مباحث المقدمة، اختلف الباحثون في تصنيفها ضمن علم من العلوم اختلافا كثيرا؛ فاعتبر بعضهم أن مباحثها تندرج تحت "علم التاريخ" أو "فلسفة التاريخ"، و اعتبرها البعض الآخر أنها بمثابة "علم الاجتماع" أو فلسفة الاجتماع"، و بين هذا و ذاك رأى فريق ثالث الجمع بين الرأيين السابقين فقرر أن موضوع المقدمة هو "مدخل اجتماعي للتاريخ" (الحصري، س. 1387هـ/1967م: 113_114).

و لئن كان موضوع المقدمة العام هو "الظواهر الاجتماعية" أو "واقعات العمران البشري أو أحوال الاجتماع الإنساني" كما يدعوها ابن خلدون نفسه، فإن ذلك يشمل جميع مناحي الحياة الأسرية، و الاجتماعية، و الاقتصادية، و السياسية، و الفكرية (الزعي، أ. دت: 23_24)؛ فهي _ أي المقدمة _ من جهة المباحث الاستطرادية بمثابة موسوعة ثينة جدا، إذ تجمع كمية كبيرة من المعلومات القيمة عن الجغرافيا و التاريخ و رسوم الحضارة، و أصناف العلوم، و أحوال الصنائع، و أصول التعليم،

و عن أهم المؤلفات العلمية و الأدبية، و الآراء السياسية و الفلسفية و الدينية (الحصري، س. 1387هـ/1967م: 114).

و بصفة إجمالية تكلم ابن خلدون في مقدمته عن الظواهر الاقتصادية بشكل عام، و أثر الاقتصاد الزراعي و الصناعي على المجتمعات، و أثر المهن و الكسب في ثروة الأمة و العلاقات الاجتماعية، كما أطل ابن خلدون النفس في أسباب قيام الدول و سقوطها، و أنواع الدول و أعمارها، كما تكلم عن تاريخ العلم و التعلم في العصور الإسلامية، إلى غير ذلك من الظواهر الاجتماعية (العبد، م. 2009م: 8).

و أمّا تفصيل ذلك فيوجب علينا جولة فاحصة بين ثنايا المقدمة و بحوثها، ليتبين لنا ما تطرقت إليه من مواضيع، و ما حوته من علوم و معارف مختلفة متكاملة فيما بينها؛ لأن ابن خلدون قد سلك في تأليفها مسلكاً غريباً على حدّ قوله، و لعلّ هذه الشمولية، أو هذا الطابع العام الذي احتوى كثيراً من المواضيع، هو ذاك المسلك الغريب الذي سلكه ابن خلدون في تأليفه للمقدمة.

و سنوقفُ بحث هذا التفصيل على عناصر تمثيلية نوجزها في ما يلي:

أولاً - علم التاريخ:

بسط ابن خلدون في مستهلّ مقدمته القول في علم التاريخ؛ فذكر فضل هذا العلم، و شرف غايته؛ فهو جمّ الفوائد، إذ يوقفنا - كما قال ابن خلدون - على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، و الأنبياء في سيرهم، و الملوك في سياستهم و دولهم، ثمّ عاب على المؤرخين و المفسرين و أئمة النقل ما يقعون فيه من مغالط و أوهام أثناء سردهم للحكايات و الوقائع التي هي مبنية في ثنايا نقولهم، و أرجع سبب ذلك الخبط إلى الاعتماد على مجرد النقل دون تمحيص أو تدقيق، ثمّ ذكر أمثلة مطوّلة عن هذه الأخطاء الواردة في مؤلفات المؤرخين و المفسرين، فتطرق للحديث عن بني إسرائيل و جيوشهم و أعدادهم، و أخبار التبابعة ملوك اليمن و جزيرة العرب، و تحدّث عن الغلط الواقع في تفسير سورة الفجر، و سبب نكبة هارون الرشيد للبرامكة، و نسب العبيديين خلفاء الشيعة بالقيروان و القاهرة، كما تحدّث عن الغلط الموجود عند هؤلاء في أحوال الحجاج، و القضاة، و الدول و ملوكها، و لم يقتصر ابن خلدون على مجرد مواقع الغلط، بل صوّب الأخبار، و أبان عن حقيقتها، و دقّق في أحداثها و مواقيتها، و ختم ذلك كله بفائدة مفادها أنّ التاريخ هو ذكر الأخبار الخاصة بعصر أو جيل، و أمّا الأحوال العامة فهي أسّ للمؤرخ تنبني عليها أكثر مقاصده و تنبّين بها أخباره، و ألحق هذا القول بمقدمة في كيفية وضع الحروف التي ليست من لغات العرب (ابن خلدون، ع. دت: 41_64).

و يبدو من هذا أنّ ابن خلدون في هذا السرد لم يأخذ بعين الاعتبار عصرا معيّنا و يقوم بدراسته دراسة مجملّة لينتقل فيما بعد إلى عصر آخر، بل إنّهُ يصف واقعة معيّنة ثمّ ثابّة ثمّ ثالثة... دون أن يكثر للعلاقات القائمة بين كل هذه الوقائع، لذا كانت بعض الوقائع مكررة، فكثرت في المقدّمة سلاسل النّسب و السّير و المعارك، و هذا ما جعل **دي سالان** يعترف بأنّ المنهج الذي استعمله **ابن خلدون** في الجزء المتعلق أساسا بالتّاريخ " قد أسفر عن التّحرّر من تسلسل الأحداث تسلسلا تاريخيا "، و هذا ما يعرف بالمنهج التّركيبي الذي يقوم على تقديم التّعليمات العامّة و التّركيبيّة التي تتيح لنا فهم النّصّ ذاته على نطاق واسع (مغربي، ع. 1988: 36_37).

و قياسا على ذلك يمكننا استخلاص منهج **ابن خلدون** التّاريخي؛ الذي يعتمد على:

- 1_ الملاحظة المباشرة و التّجربة بغية الاقتراب من اليقين.
 - 2_ تفسير الظّواهر و تحليلها و استخدام منطق التّعليل.
 - 3_ اعتماد منهج المقارنة.
 - 4_ قياس الأخبار على أصول العدّة و طبائع العمران، و عدم أخذها كما هي دون تمحيصها و التّثبت منها.
- و قد طبق **ابن خلدون** هذا المنهج على سائر أبحاث المقدّمة، فعلى الرّغم من أن موضوعها الأساسي هو "العمران"، فالصّحيح أيضا أنّه مقدّمة لشيء آخر كما يُفيد عنوانها، فقد أرادها كاتبها أن تكون مقدّمة منهجيّة لكتابة التّاريخ و تفسيرها له، كما أنّ موضوعها يمتدّ إلى التّاريخ بصفة وثيقة، فالتّاريخ عند **ابن خلدون** إضافة إلى كونه إخبار عن الأيّام و الدّول، هو في الآن ذاته خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم (عاصي، ح. 1411هـ/1991م: 4).

ثانيا_ علم الجغرافيا:

علم الجغرافيا كما علم التّاريخ له نصيب في مقدّمة **ابن خلدون**؛ إذ أورد هذا الأخير في مقدّمته ثنفا معتبرة من هذا العلم، فأفرد لذلك قسما خاصّا عنوانه بتفصيل الكلام على بدء الجغرافيا، ذكر فيه أنّ الحكماء قسّموا هذه المعمورة على سبعة أقسام من الشّمال إلى الجنوب، و سمّوا كلّ قسم من تلك الأقسام إقليمًا يمزّ الأول منها من المغرب إلى المشرق مع خطّ الاستواء، و يليه من جهة شماله الثّاني ثمّ الثّالث ثمّ الرّابع ثمّ الخامس ثمّ السّادس ثمّ السّابع؛ و هو آخر العمران من جهة الشّمال، و ليس وراءه إلا الخلاء و القفار، إلى أن ينتهي إلى البحر المحيط، كالحال فيما وراء الإقليم الأوّل في جهة الجنوب، إلا

أنّ الخلاء في جهة الشمال أقلّ بكثير من الخلاء الذي في جهة الجنوب، كما أنّ أزمنا الليل و النهار تتفاوت من إقليم لآخر بسبب ميلان الشمس (ابن خلدون، ع. دت: 84).

و بعد أن أدلى ابن خلدون بهذه المقدّمة في بداية حديثه عن جغرافية العالم بصفة إجمالية، شرع بتفصيل ذلك من خلاله حديثه عن الأقاليم السبعة التي ينقسم عليها العالم أجمع بشيء من البسط و الإطناب على النحو الآتي:

الإقليم الأوّل: و فيه جزر كثيرة و أشهرها ثلاثة أهلها يعيشون في حالة من البدو، و أنّ الجزء الأوّل من هذا الإقليم فيه مصبّ النيل الذي تحاذيه مدينة سلا و تكرور و غانة و كلّها تخضع لمملكة مالي من أمم السودان التي يقبع في القرب منها من جهة الشمال بلاد لمتونة و سائر طوائف الملثمين، و في جنوب هذا النيل قوم من السودان يقال لهم "لِملِم"، و أما الجزء الثاني فأكثره رمال، و في الجزء الثالث منه تقع بلدة "كوكو" التي استولى عليها سلطان مالي و ضمّها إلى مملكته، و في الجنوب من بلدة "كوكو" تقع بلاد "كائُم" من أمم السودان، ثمّ "وَنَعَارَة" على ضفّة النيل من شماليه، و في الجزء الرابع تقع بلدة "زَعَاوَة" و "تاجرة"، و فيه يمرّ نيل مصر، و في الجزء الخامس من هذا الإقليم تقع بلاد "الحبشة"، و في الجزء السادس تقع بلدة "زالع" و "علي بن يعقوب" و قرى بربرية يتلو بعضها بعضا، كما أنّ فيه بحر القلزم و بحر فارس، و خليج باب المندب، و المحيط الهندي (ابن خلدون، ع. دت: 85_86).

الإقليم الثاني: و ينقسم إلى تسعة أجزاء، و يضمّ كثير من البلدان كصنهاجة، و فزان، و يثرب، و الحجاز، و نجد، و اليمامة، و الهند.... .

الإقليم الثالث: و ينقسم إلى عشرة أجزاء، و يضمّ من البلاد سوس، و نول، و درعة، و المغرب الأقصى، و ليبيا و الجزائر، و الشام، و مصر، و بلاد خرخير من الترك، و الصين.... .

الإقليم الرابع: و ينقسم إلى تسعة أجزاء، و يضمّ من البلدان طنجة، و القسطنطينية، و الأندلس، و طليطلة، و بلاد الأرمن، و أنطاكية، و طرسوس، و اللاذقية، و طرابلس، و معظم بلاد الهلوس.... .

الإقليم الخامس: و ينقسم إلى عشرة أجزاء، و يضمّ من البلاد آبله، و شطليّة، و البندقية، و عمورية، و أرمينية، و أذربيجان، و بلاد أركس من أمم الترك.... .

الإقليم السادس: و ينقسم إلى عشرة أجزاء، و يضمّ من البلاد بريطانيا، و صاقس، و أرمندية، و شطونية، و روسيا، و بلاد الخزر، و بلاد الشركس.... .

الإقليم السابع: و ينقسم إلى عشرة أجزاء، و يضمّ من البلاد أرض فلّويّة، و أرض قيمازك من التّرك، و أرض رسلاندة، و أرض القمانيّة، و البلاد الرّوسيّة، و الأرض المنتنة... .

و توجد بجميع هذه الأقاليم جزر، و بحار، و أنهار، و محيطات، و جبال، و وديان (ابن خلدون، ع. دت: 88_111).

و بهذا التّفصيل يكون **ابن خلدون** قد أسهب في علم الجغرافية إسهابا كبيرا، فكلّ الذي ذكره في هذا القسم ينتمي إلى دائرة هذا العلم، بل هو عين هذا العلم، و قد تكون هذه التّقاسيم المذكورة في هذا الموضوع من المقدّمة بمثابة البدايات أو المنطلقات التي يمكن أن يبني عليها الجغرافيون أسس و قواعد هذا العلم، و هذا يدلّ على رسوخ هذا الرّجل في هذا الفرع العلمي، و أنّه على معرفة تامّة بماهيتته و حيثياته و تفاصيله و فروعه المتعدّدة، و أنّه قد اكتشف ذلك عن طريق رحلاته الكثيرة مشرقا و مغربا من أجل الاطّلاع بالملاحظة المباشرة و التّجربة الواقعيّة، و هو المطلوب في مثل هذه العلوم التي لا تتأتّى إلا من هذا الطريق القائم على البحث بالأدوات الحيّة؛ لأنّ علم الجغرافيا ليس كعلم التّاريخ الذي يعتمد على الرّوايات و سرد الأحداث، و إنّما الأمر بخلاف ذلك، فهو يحتاج إلى مشاهدة الآثار البشريّة و البيئات الإقليميّة مُشاهدة مباشرة، حتى يبني عليها الباحث في هذا المجال تصوّراته للكون أو البيئة الجغرافيّة التي يريد وصفها أو دراستها.

و هذا ما قام به **ابن خلدون** فعلا الذي أورد في مقدّمته شيئا كثيرا من ذلك؛ لتكون مقدّمة شاملة تضمّ مختلف العلوم و المعارف، فكما وضع أسس و مناهج علم التّاريخ قبلا، فها هو هاهنا يحاول وضع قواعد و أسس و مناهج لعلم الجغرافيا ليتمكّن من يحتذي حذوها من ناصيّة هذا العلم.

ثالثا_ علم الاجتماع:

إنّ مقدّمة **ابن خلدون** في أصلها كتاب اجتماعي يطرح قضايا اجتماعيّة، و يعالج المشاكل الحياتيّة التي يواجهها النّاس في واقعهم، فموضوعها العام يدور في فلك هذا العلم و رحابه، إذ درس فيها مؤلّفها الظّواهر الاجتماعيّة دراسة معمّقة بالتّحليل، و ناقشها بكلّ موضوعيّة، منطلقا من الواقع، و من الحياة الإنسانيّة المُشاهدة للعيان، معتمدا على أدوات بحثيّة و مناهج علميّة رصينة، أضاء بها عن كثير من القضايا الاجتماعيّة بمختلف مناحيها سياسيّة و اقتصاديّة و تاريخيّة...، " و بالرّغم ممّا يذهب إليه بعض الباحثين من أنّ المقدّمة لا تشتمل على سوسيولوجيا شديدة الإتقان، إلا أنّه لا ريب في أنّ **ابن خلدون** قد أدرك و حدّد بكلّ تأكيد وجهة النّظر السّوسيولوجيّة، إلا أنّ التّأثيرات المتنوّعة المتراكمة على فكره السّوسيولوجي أدخلت كثيرا من المعطيات على تحليلاته و حالت دون بعض الإتقان في المفاهيم و

التعليقات، و في الواقع لا تتم الصياغة الصورية المتقنة لعلم من العلوم إلا في مرحلة متقدمة من تطوره، و لذلك نعتقد أننا نعبر تعبيراً صادقاً عن الطابع العميق لفكر ابن خلدون إذ نستعمل عبارة (الواقعية السوسيولوجية)؛ لأن الواقعية الخلدونية في وجهها السوسيولوجي، تعبر عن كيفية تصوّر الفكر للوجود الاجتماعي التاريخي في وقت محدد من التاريخ، فمن حيث هي فلسفة تتسم بطابع متقدم بالنسبة إلى الفلسفات السابقة، و من حيث هي سوسيولوجيا تُبنى بالشكل الذي ينمو في السوسيولوجيا الحديثة " (نصّار، ن. 1981م: 190_191).

و قد أورد ابن خلدون في مقدّمته كثيراً من المباحث الاجتماعية، فتحدّث عن العمران البدوي و الأمم الوحشية، من خلال تطرّقه للحياة البدوية، و العصبية، و الملك، و الرئاسة، و الأمم الوحشية، و العرب (ابن خلدون، ع. دت: 148_182)، و تحدّث عن الدّول العائمة و الملك و الخلافة و المراتب السلطانية و ما يعرض في ذلك كلّ من الأحوال بشيء من التفصيل، و تطرّق في ثنايا هذا الباب إلى ذكر شيء عن الإمامة، و البيعة، و ولاية العهد، و مقتل الحسين، و الخطط الدينيّة الخلافيّة، و غير ذلك من المباحث المتعلقة بهذا الشأن (ابن خلدون، ع. دت: 184_370)، كما تحدّث أيضاً عن البلدان و الأمصار و سائر العمران و ما يعرض في ذلك من الأحوال، فذكر المدن العظيمة، و الهياكل المرتفعة، و المساجد و البيوت العظيمة، و المباني، و تفاضل الأمصار و لغاتها و طبائعها و أحوالها، و الحضارة (ابن خلدون، ع. دت: 378_415)، و تحدّث كذلك عن المعاش و وجوهه من الكسب و الصناعات، فتطرّق للرزق و الكسب، و المعاش و أصنافه و مذاهبه، و الجاه، و السعادة، و الفلاحية، و التجارة، و الصناعة (ابن خلدون، ع. دت: 417_466)، و تحدّث في آخر المطاف عن العلوم و أصنافها و التعليم و طرقه و سائر وجوهه، فتطرّق لعلم التّصوّف، و الفقه، و علم الكلام، و الفرائض، و تعبير الرؤيا، و الحساب، و الجبر، و المساحة، و المناظرة، و الطّب و الإلهيات، و السّحر، و أسرار الحروف، و الكيمياء، و تحدّث أيضاً عن العلماء، و فضل العلم و طرق تحصيله، و اللغات، و النثر، و الشعر... (ابن خلدون، ع. دت: 468_490).

رابعا_ علم الاقتصاد:

تحدّث ابن خلدون في مقدّمته كذلك عن علم الاقتصاد بعرضه لأبجديات التجارة و أحوالها، و ظروف الزراعة، و الصناعات التي كانت موجودة في ذلك الزّمن عند العرب و العجم و البربر، و لم يكتفِ — كعادته في كل مرّة — بالسرد فقط، بل راح يقوم، و يُعطي حلولاً، و يُدلي بآراء من أجل التّهوض بكلّ هذه القطاعات، و هذا ينمّ على درايته و بمعرفته بالاقتصاديات و متطلّباتها.

و نورد من ذلك مطالبته بحريّة التجارة، و تنديده بالاحتكار، حينما يقول: "و ممّا اشتهر عند ذوي البصر و التجربة في الأمصار، أنّ احتكار الزّرع لتحيّن أوقات الغلاء مشؤوم، و أنّه يعود على فائدته بالتّقلّب و الخسران، و سببه و الله أعلم، أنّ الناس لحاجتهم إلى الأقوات مضطّرون إلى ما يبدلون فيها من الأموال اضطرارا، فتبقى النفوس متعلّقة به، و في تعلّق النفوس بمالها سرّ كبير في وباله على من يأخذه مجّانا، و لعلّه الذي اعتبره الشّارع في أخذ أموال الناس بالباطل، و هذا و إن لم يكن مجّانا فالنفوس متعلّقة به، لإعطائه ضرورة من غير سعة في العُذر فهو كالمكره، و ما عدا الأقوات و المأكولات من المبيعات لا إضطرار للناس إليها، و إنّما يبعثهم على التّفنّن في الشّهوات، فلا يبدلون أموالهم فيها إلا باختيار و حرص، و لا يبقى لهم تعلّق بما أعطوه، فلهذا يكون من عُرف بالاحتكار، تجتمع القوى النفسانيّة على متابعتها، لما يأخذه من أموالهم، فيفسد ربحه" (ابن خلدون، ع. دت: 433_434).

و في هذا ناقش ابن خلدون مصادر الحصول على الرّبح التجاري من تخزين السلعة كضرورة من ضرورات نقلها من بلد إلى آخر حيث يحتاجها أفراد الدولة الأخيرة، كما بيّن مصدرا آخر للحصول على الرّزق من جزاء تخزين السلع حتّى تتحسن الأسعار في السّوق؛ (أي أنّ التخزين هنا ليس بقصد تخزين السلعة عن البيع للأفراد)، و لكن إذا كان الهدف رفع أسعار السلع في أسواق المسلمين فيسمّى هذا احتكارا و لا سيما إذا كان هذا الاحتكار واقعا على ضرورات المسلمين كالأقوات (عبد المولى، س. 1409هـ/ 1989م: 19).

و يرى ابن خلدون أنّ على ولي الأمر أن يضرب على يد المحتكر و يُعزّره بما يرى، و أن يبيع عليه ما احتكر بالسّعر المناسب، أي منع الاحتكار و ضمان التّعامل في السلع بالأسعار التي لا تجحف بالطّرفين، و لا يجوز للدولة التّدخل في الأسعار بالرفع أو خفض إذا كان ذلك دون تدبير أو اتّفاق (عبد المولى، س. 1409هـ/ 1989م: 19).

كما بيّن ابن خلدون في هذا الباب معنى التجارة و مذاهبها و أصنافها، و تحدّث عن الفلاحة و فوائدها، ثم أورد حديثا عن الصّنائع؛ فبيّن أنّ العلم شرط لمعرفتها، و أنّها لا تكمل إلا بكمال العمران الحضري و كثرته، و أنّ رسوخها في الأمصار إنّما يتمّ برسوخ الحضارة و طول أمدّها، و أنّها تُستجدّ و تكثّر إذا كثر طالبها، و أنّ الأمصار إذا قاربت الخراب انتقصت منها الصّنائع، و أنّ العرب أبعد الناس عن الصّنائع، ثمّ عرّج عن أمّهات الصّنائع فذكر منها الفلاحة و البناء و الخياطة و النّجارة و الحياكة و الكتابة و الوراقة و الغناء و الطّب بشيء من التّفصيل، و ختم ذلك بفصل أورد فيه أنّ الصّنائع تُكسب صاحبها عقلا و بداهة (ابن خلدون، ع. دت: 430_467).

و في كل ذلك كان ابن خلدون يصوّب المعاملات الخاطئة التي تحصل في المجتمع، و يورد الحلول للمشاكل التي يمكن أن تنتج عن بعض التصرفات المخالفة للقواعد التجارية أو المعاملاتية، بل و يتجاوز ذلك بالتحليل و المناقشة الجادة و التصويب إذا اقتضى الأمر تصويبا، و كأنّ الرجل يتعامل مع هذه القضايا معاملة الاقتصاديّ العالم بخفايا و ماهية الأمور الاقتصادية من حيث مبادئها وأصولها و مقوماته و أسسها و قواعدها، و الخبير بمقتضياتها و مقاصدها و غاياتها، و المطلع على أبعادها الخفية و الظاهرة، و المتبصر في آثارها على الفرد و المجتمع، لأجل ذلك كله يمكن عدّ المقدمة مصدرا من المصادر الاقتصادية التي بإمكان ذوي الاختصاص الاعتماد عليها و الرجوع إليها لتغذية أبحاثهم في هذا المجال.

خامسا_ العلوم الدنيّة:

لم يكتف ابن خلدون في مقدّمته بما أورده من علوم دنيويّة و كونيّة، بل راح يخوض غمار العلوم الدنييّة؛ التّقليّة منها و العقليّة، يبحث عن ماهيتها و مسائلها و قضاياها، و يزيّج علمائها، و يكشف عن المؤلّفات المؤلّفة فيها.

فتحدّث عن علوم القرآن من التّفسير و القراءات، فعرّف القرآن الكريم، و بيّن مسائل كثيرة تتعلّق بالقراءات، و الكتب المؤلّفة في ذلك، و عرّف بالتّفسير و ذكر أنواعه و بعضا من رجاله (ابن خلدون، ع. دت: 475_479)، و تحدّث عن علوم الحديث، فبيّن أنواع هذا الفنّ مبينا طريقة الأخذ به، و ذكر بعض رجاله، و تكلم عن الأسانيد، و التّقلّة و الرّواة الذين يروون الأحاديث، و تطرّق لعلم الجرح و التعديل، و ذكر بعض المصنّفات المصنّفة في هذا العلم كالموطأ و صحيح البخاري و مسلم و أعداد الأحاديث المروية فيها، و بيّن صفة تخرّيج الأحاديث و المستدركات المستدركة على المتقدّمين، و تطرّق للناسخ و المنسوخ (ابن خلدون، ع. دت: 479_483)، و تحدّث عن علم الفقه مبتدئا بالتّعريف به، و مبينا الأدلّة المصاغة للتّدليل على مسائله، و تكلم عن القياس و الإجماع، فبيّن مذاهب أهل العراق و الحجاز و أهل البيت في ذلك، و ذكر طائفة من الفقهاء المتضلّعين في هذا العلم، كما تطرّق للمذاهب الفقهيّة كالمذهب الشافعي و المذهب المالكي، و بسط القول في هذا الأخير و مؤسّسه باعتباره مذهب المغاربة (ابن خلدون، ع. دت: 483_489)، و أتبع هذا الفصل بحديثه عن علم الفرائض المتعلّقة بالمواريث و التّركات، فعرّف به، و بيّن مسائله، و مذاهب الصّحابة و العلماء فيه (ابن خلدون، ع. دت: 489_490)، و تحدّث عن علم أصول الفقه و ما يتعلّق به من الجدل و الخلافات، فبيّن رسمه و حدّه و أدلّته، و مسائله و قضاياها، و طريقة البحث فيه و تطبيقه على الواقع، و تحدّث عن علمائها و الكتب المؤلّفة فيه، و ختم هذا الفصل بلمحة عامّة عن الخلافات و الجدل (ابن خلدون، ع. دت: 490_495)، ثمّ تحدّث عن علم الكلام، فعرّف به، و بيّن أهدافه،

و عوامل نشأته، و ذكر بعض مسائله و علمائه و كتبه (ابن خلدون، ع. دت: 495_504)، و تحدّث أيضا عن علم التّصوّف، مبينا ماهيته و حقيقته و أصله و غاياته و مراتبه و مسائله و نشأته، و المصطلحات الواردة فيه، و رجاله، و المآخذ و الانتقادات التي وجّهت إليه من قبل بعض العلماء (ابن خلدون، ع. دت: 517_528)، و تحدّث كذلك عن علم تعبير الرّؤيا، فذكر نشأته و أصوله و شرعيته، و الفرق بين الرّؤيا الصادقة و غيرها، و معنى التّعبير و قوانينه و طريقته (ابن خلدون، ع. دت: 528_531).

و قد استغرق الحديث عن هذه العلوم صفحات كثيرة من المقدّمة، و ذلك يدلّ أولا على أهميّة هذه العلوم في الفكر الخلدوني، و ثانيا على رسوخ هذا الرّجل و إمامه بشقّي العلوم الدّينيّة، و هذا هو ديدن العلماء القدامى، لذلك لم يخرج ابن خلدون عن المألوف و سلك مسلك هؤلاء العلماء في طريقة التّأليف و الكتابة، فحاول أن يضمّن مقدّمته كل العلوم الدّينيّة المشتهرة في عصره، فتطرّق إليها واحدا واحدا على النّحو الذي بيّناه سابقا، إيمانا منه بفضل هذه العلوم و قيمتها الدّينيّة و الدّنيويّة، و سعيّا منه إلى حيازة الشّرف بتدوينها و البحث فيها، نظرا لقداسة موضوعاتها، فشرف العلم إنّما يحصل بشرف المعلوم، و عالم كابن خلدون لم يفوّت فرصة الأخذ بهذه القاعدة الجليّة، فحاض غمار الدّين من خلال فحص علومه.

سادسا_ علوم اللّغة العربيّة و الأدب العربي:

باعتبار ابن خلدون عربيّ الأصل و المولد و النّشأة، كان خليقا به أن يورد في مقدّمته، ثنفا معتبرة أو قبسات مضيئة من علوم اللّغة العربيّة، افتخارا بهذه اللّغة و تأصيلا لها.

فقد في الباب السّادس من مقدّمته سبعة عشر فصلا تستغرق زهاء مائة صفحة في علوم اللّسان العربي، فلم يغادر أيّ فرع من فروع اللّغة العربيّة و آدابها إلا تكلم بإفاضة عن موضوعه و تطوّره، و أهمّ ما كُتب فيه من مؤلّفات في القدم و الحديث، حتّى اللّغات العاميّة و ما أُلّف بها من أشعار لعهد، فتكلّم على النّحو و البيان و الأدب نشره و شعره و الأزجال و الموشحات و متن اللّغة و فقهاها، و نشأة اللّغة العربيّة و تطوّرها و استحالتها إلى لغات عاميّة، و آداب اللّغات العاميّة، و أشعار القبائل الهلاليّة و الرّناتية وما إليها من الأشعار العاميّة، و تناول بحثا هامة تتعلّق باللّغة و آدابها كتفسير الدّوق في مصطلح أهل البيان، و تحقيق معناه، و أنّه لا يحصل غالبا للمستعربين من العجم، و أنّ العجمة إذا سبقت اللّسان قصّرت بصاحبها في تحصيل العلوم عن أهل اللّسان العربيّ، و أنّ اللّغة ملكة صناعيّة، و أنّ ملكة اللّسان العربيّ غير صناعة العربيّة و مستغنيّة عنها في التّعليم، و أنّ حصول هذه الملكة بكثرة الحفظ و جودتها بجودة المحفوظ، و بيان المطبوع من الكلام و المصنوع و كيفيّة جودة المصنوع أو فُصوره،

و انقسام الكلام إلى فئتي النظم و النثر، و أنّه لا تتفق الإجابة في فئتي المنظوم و المنشور معا إلا للأقل، و صناعة الشعر و وجه تعلّمه، و أنّ صناعة النظم و النثر إنّما هي في الألفاظ لا في المعاني، و أنّ أهل المراتب يترفعون عن انتحال الشعر، و الرّدّ على من ذهب إلى أنّ لغة العرب لهذا العهد مغايرة للغة مضر و حمير، و أنّ لغة أهل الحضر و الأمصار لغة عامية قائمة بنفسها (عبد الواحد وافي، ع. 1404هـ/1984م: 169 _ 170).

و ما كتبه ابن خلدون في هذه الفصول لا يدلّ على قوّة تمكّنه و سعة إطلاعه في جميع تخصّصات اللّغة العربيّة فحسب، بل يسمو به إلى مستوى الأئمّة و كبار المتخصّصين في هذه الموادّ (عبد الواحد وافي، ع. 1404هـ/1984م: 170)، و يجعله رائدا في هذا المجال، و كلّ ذلك يدلّ على تضلّع هذا الرّجل في هذا العلم، و تمكّنه من قضاياها، و أخذه بناصيته، فعالم بحجم ابن خلدون كان لزاما عليه أن يكون على دراية واسعة بعلوم اللّغة العربيّة و آدابها، و متبحّرا في موضوعاتها، لأنّها من العلوم الآليّة التي لا يستغني عنها عالم من العلماء مهما كان توجّهه، و هي المفتاح لكل العلوم سواها، و هذا ما أدركه عالمنا فاعتنى بها أيّما اعتناء، و جعل مقدّمته عامرة بمسائلها و قضاياها و فنونها المختلفة.

سابعا_ علوم أخرى:

ضمّت المقدّمة إضافة إلى العلوم التي ذكرناها آنفا، علوما أخرى مختلفة لها علاقة مباشرة بحياة الفرد و المجتمع، و ذات فوائد جمّة تعود على النّاس بالخير و المنفعة.

فتحدّث ابن خلدون عن العلوم العقليّة التي هي طبيعيّة للإنسان و لا تختصّ بملة معيّنة؛ كعلم المنطق الذي يعصم الدّهن عن الخطأ، و علم الموسيقى الذي به تُعرف نسب الأصوات و النّغم، و علم الهيئة الذي يختصّ بتعيين الأشكال للأفلاك (ابن خلدون، ع. دت: 531_534)، و تحدّث عن العلوم العدديّة؛ كعلم الحساب الذي يختصّ في حساب الأعداد بالضّمّ و التّفريق، و علم الجبر الذي بواسطته يتمّ استخراج العدد المجهول من قبل المعلوم المفروض إذا كان بينهما نسبة تقتضي ذلك، و علم المعاملات و الفرائض الذي يختصّ بتصرف الحساب في معاملات المدن في البياعات و المساحات و الزّكوات و سائر ما يعرض فيه العدد من المعاملات، و تحدّث عن علم الهندسة الذي ينظر في المقادير المتّصلة كالخطّ و السّطح و الجسم، و المنفصلة كأعداد فيما يعرض لها من العوارض الدّاتيّة (ابن خلدون، ع. دت: 538_540)، و تحدّث عن علم الطّبيعيّات الذي يبحث في الجسم من جهة ما يلحقه من الحركة و السّكون، و علم الطّبّ الذي هو صناعة تنظر في بدن الإنسان من حيث يمرض و يصحّ، و علم الفلاحة الذي ينظر في التّبات من حيث تنميته و نشوئه (ابن خلدون، ع. دت: 545_547)، و تحدّث عن علم الإلهيات الذي ينظر في الوجود المطلق (ابن خلدون، ع. دت: 548)، و تحدّث عن علم السّحر و الطّلسمات الذي هو علم بكيفيّة استعدادات تقتدر النفوس

البشريّة بها على التّأثيرات في عالم العناصر إمّا بغير مُعين أو بِمُعينٍ من الأمور السّماويّة (ابن خلدون، ع. دت: 549_556)، و تحدّث عن علم أسرار الحروف المسّمى بالسّيمياء (ابن خلدون، ع. دت: 556_579)، و تحدّث عن علم الكيمياء الذي ينظر في المادّة التي يتمّ بها كون الدّهب و الفضّة بالصّناعة (ابن خلدون، ع. دت: 579_588) .

الخاتمة:

هذه نبذة عن العلوم التي أوردها ابن خلدون في مقدّمته _ و كما ترى _ أنّها علوم جَمّة و مفيدة و غزيرة بركاتها على الأمم، و التي تدلّ باعتبارها مصفوفة في سفر واحدٍ على موسوعيّة مؤلّف هذا السّفر و سعة اطلّاعه، و غزارة علمه، و إلمامه بشتّى أصناف العلوم و المعارف، و لا شكّ أنّ إيمان ابن خلدون بالتّكامل المعرفيّ بين العلوم، و تواصلها في الواقع الإنساني من أجل تشكيل منظومة معرفيّة و تعليميّة متكاملة فيما بينها و من حيث عناصرها، بغية تطوير المجتمع و تنميته في مختلف المجالات.

و من خلال هذه العلوم المبثوثة في المقدّمة تظهر بجلاء شخصيّة ابن خلدون الفكريّة و العلميّة المتّسمة بالعالميّة و الشّموليّة، الذي أسّس العمل الموسوعيّ بما بثّه في مقدّمته من علوم و معارف، فحاول ضمّها جميعاً في مصنّف واحد يكون مرجعاً لكلّ باحث أو مطّلع في أيّ فرع من الفروع العلميّة، و هذا هو ديدن العلماء المسلمين القدامى في تصانيفهم؛ إذ كانوا يسيرون على شاكلة ابن خلدون فيما يكتبون، و هذا منهج سلكه هؤلاء العلماء لتبيين التّكامل المعرفي و العلمي بين العلوم، و خاصّة بين العلوم الإسلاميّة و غيرها من العلوم الأخرى العقليّة و الكونيّة، فكم من علم منها كانت بذرته الأولى متواجدة في أحد العلوم الإسلاميّة، أو كانت نشأته بفضل أحدها كذلك، و هذا يكشف عن فضل العلوم الإسلاميّة بين سائر العلوم الأخرى أوّلاً، و عن أنّ هذه العلوم (العلوم الإسلاميّة) لا تتخذ موقف الحياد السّلبيّ أو الانفصال عن باقي العلوم الأخرى، بل تتداخل معها و تتقاطع و إياها في العديد من النّقاط و العناصر و المحاور و الأهداف.

قائمة المصادر و المراجع:

- 1_ الزركلي، خير الدين. (2002م). الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرجال و النساء من العرب و المستعربين و المستشرقين)، (ط6). بيروت، لبنان: دار العلم للملايين.
- 2_ مغربي، عبد الغني. (1988م). الفكر الاجتماعي عند ابن خلدون، (دط). الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعيّة.
- 3_ عاصي، حسين. (1411هـ/1991م). ابن خلدون مؤرخاً، (ط1). بيروت، لبنان: دار الكتب العلميّة.

- 4_ عبد الواحد وافي، علي. (1404هـ/1984م). عبقریات ابن خلدون، (ط2). الرياض، السعودية: شركة مكتبات عكاظ للنشر و التوزيع.
- 5_ عبد المولى، سيد شوريحي. (1409هـ/1989م). الفكر الاقتصادي عند ابن خلدون الأسعار و التقود_ دراسة تحليلية _، (دط). السعودية: إدارة الثقافة و النشر.
- 6_ العبد، محمد. (2009م). نصوص مختارة من مقدمة ابن خلدون، (ط1). القاهرة، مصر: مركز الرسالة للدراسات و البحوث الإنسانية.
- 7_ نصّار، ناصيف. (1981م). الفكر الواقعي عند ابن خلدون_ تفسير تحليلي و جدلي لفكر ابن خلدون في بنيته و معناه _، (ط1). بيروت، لبنان: دار الطليعة للطباعة و النشر.
- 8_ أبو خلدون، ساطع الحصري. (1387هـ/1967م). دراسات عن مقدمة ابن خلدون، (ط3). القاهرة: مكتبة الخانجي مصر. بيروت، لبنان: دار الكتاب العربي.
- 9_ ابن خلدون، عبد الرحمن. (دت). مقدمة ابن خلدون، (دط). عين مليلة، الجزائر: دار الهدى.